

تجليّات الحضور الذكوري في الخطاب الروائي النسوي

- خاتم ل: رجاء عالم أنموذجاً -

الباحثة: هلاء بوزيدي

قسم اللغة العربية - جامعة باجي مختار - عنابة (الجزائر)

fr.Hala_ombouagi@yahoo

ملخص:

يتناول هذا البحث تجليّات الحضور الذكوري في الخطاب الروائي النسوي، وذلك من خلال تتبّع هذا الحضور وإبراز أهم مظاهره مع رصد عوالم الذكورة المخفية والمسكوت عنها في نص **خاتم لرجاء عالم**، وتبيين مدى قدرتها على خلق عالم مُغاير تماماً لما هو مُتعارف عليه والذي تَرجح بين كفتي القوّة والضعف، وقد جاء نصّها حاملاً للعديد من الأبعاد ولدلالات مبيّناً مدى زيف بعض المعتقدات في المجتمعات العربية التي جعلت من الرجل الأصل ومصدر القوّة.

الكلمات المفتاحيّة: الذكر، الذكورة، الحضور الذكوري، الفحولة، والرجولة، الخطاب الروائي النسوي، نصّ الأنثى، الأنوثة.

Résumé :

Cet exposé comporte la présence masculine dans le discours des romans féminisme, à travers la poursuite de cette présence et démontrer ses principales apparences, en détectant le monde masculin discret et qui n'apparaît pas dans " Khatem " de " Raja Aalem " elle essaye de faire montré qu'elle est capable de créer un monde entièrement différent de l'habituel car son texte a comporté plusieurs dimensions et significations en démontrant à quel point certaines croyances dans les sociétés arabes sont erronées et qui se basent sur l'idée que l'homme est le plus fort .

يُعدّ موضوع الذكر في الخطاب النسوي، أحد أبرز القضايا المطروحة في نصوص الأنثى، حيث اهتمت بعض الكاتبات إلى النص الروائي للتعبير عن مسألة الذكورة، في محاولة منها للتمرّد عن وضع الأنثى في المجتمع العربي الذي رسّخ مقولة الذكر/ الرجل، الفعل، والأنثى الخاضعة، والبوح عمّا هو مسكوت عنه لدى الجنسين، الأمر الذي دفعنا إلى البحث عن تجليّات الحضور الذكوري في الخطاب الروائي النسوي، وتحديدًا في رواية "خاتم" للروائية

السعودية رجاء عالم لما تحمله من صَوَر وتجليات للتفكير العربي الذكوري المُنحاز لمقولة الرجل الفحل. وما تُحيل إليه هذه المقولة من معاني ك: القوّة، والكمال، والشجاعة، والمكانة العليا¹، إضافةً إلى ضرورة وجود الولد السند الذي يستند عليه الرجل في حياته، الحامل لاسمه، الحافظ لنسل العائلة من الزوال وانقطاع الذكر، ف: (اسم العائلة مُقْتَرَن بالذكورة لأنّه عبرها يستمر)²، فكيف نظرت الأنثى الكاتبة إلى الذكر؟ وكيف تشكّل النموذج الذكوري في وعيها وربّما لا وعيها؟ هل أسقطته من كرسي الفحولة، ووضعتة على كرسي هزّاز يتأرجح بين القوة والضعف؟ وكيف ينظر الذكر إلى ذاته من خلال ما تسرده الأنثى على لسانه؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه راصدين تجليات هذا الحضور، كون رواية خاتم تزرخ بالعديد من الشخصيات الذكورية المختلفة إلّا أنّها ركزت على ثلاث شخصيات محورية لتقوم عليها عملية السرد، وذلك لما لها من أهميّة بالغة في تصوير المجتمع الذكوري العربي عامّةً والسعودي خاصّةً، فهذه الرواية تعبير صادق عن حالة العرب المُهَيَّكة، خلال فترة الممالك، وما آلت إليه بسبب التواجد العثماني، الذي دخل بدافع الدين فأذاق العرب من وبال أمره الكثير، مُحطّطاً لأمالهم، مُستغلاً لكافة رجالهم، مُهدراً دماءهم، مُحللاً امتلاكه لهم، مُحَرِّماً أملهم، ورجالهم عليهم.

أولاً: مفهوم الذكر / التذكير:

عادة ما نجد تسميات عدّة كالرجولة، والفحولة والتذكير والذكر، تُطلق على أبناء آدم، إلّا أنّ هذه التسميات لا معنى لها دون وجود الطرف المقابل لها ألا وهو: الأنثى / المرأة النصف الثاني المُكَمَّل للبشرية، نجد أنّ الذكر خلاف الأنثى، وذكّر الشيء: حفظه واستحضره وتذكّره، وجرى على لسانه بعد نسيانه³، فالذكورة: جاءت من الذكر، ربّما لهذا السبب تُفسّر رغبة الرجل الشديدة في إنجاب الذكر حتى لا ينقطع ذكره ولا يبقى في طيّ النسيان، فبالإنجاب الذكر تتحقّق فحولة الرجل.

إذا كانت الذكورة مُصطلح يُقابله مُصطلح الأنوثة، فإنّ كلاهما مُصطلح إشكالي إلى حد بعيد، كما أنّهما مفهومان مُتوازيان ومُتعارضان في آن واحد، حسب تعبير سارة جامبل Sarah Gamble، وذلك لكونهما يُعبّران عن التعقيدات الموجودة في التفكير بشأن آليات العلاقة بين الجنسين، والميل الجنسي والأدوار الاجتماعية وتحديد المسؤوليات الاجتماعية، ومنه نجد أنّ الذكورة تُعنى بمجموعة الخصائص المميّزة للرجال، مُستندة إلى الحتمية البيولوجية البسيطة لتؤكد بذلك الاختلافات البيولوجية بين الجنسين⁴، ومنه فإنّ التمييز الحاصل بين الرجل

والمرأة تميز قائم على الأساس الجنسي، الرافع من شأن الرجل، ليحطّ في المقابل من شأن المرأة ف: (مقولي "رجل" و"امرأة" تعرّفان بأنّهما لا متناظرتان أو ترابطيتان [هرميتان] من البداية).⁵ هذه التراتبية تُخضع المرأة إلى القواعد الموضوعية جاعلةً من الأول - الرجل - سيّداً للكون وهي التابع الذي يدور في فلكه ومحيطه، لترسّخ في الذهنية البشرية، وتنعزّز أكثر عن طريق أغلب الفلاسفة القدماء، هذا التحديد الذي وضعه الأوائل تعمّق أكثر في الذهنية البشرية، ليشمل مختلف المجالات، فإرضاً نفسه عليها ليغدو (التذكير هو الأصل، وهو الأكثر، ولن يكون التذكير أصلاً إلا إذا صارت الأنثى فرعاً)⁶، وتعدّ الكتابة بأنواعها من بين المجالات التي احتكرها الجنس الأول، لتصبح من اختصاصه، ممّا أكسب أداواتها صفة الذكورية، فقد: (تمّ تعريف القلم ، ليس بشكل عرضي، بل بشكل جوهري بأنّه "أداة ذكرية")⁷ ، مُلازمة للرجل دون المرأة؛ هذه الأخيرة التي كان دورها محصوراً في مجال الحكي وهذا ما ترسّخ في أذهاننا من خلال رواية الليالي "شهرزاد"، فالمرأة في موروثنا الثقافي تُلهم ولا تُبدع.

فإذا كان القلم أداة ذكورية بامتياز، والكتابة رجل، فكيف جاءت كتابة المرأة؟ هل كتابتها كتابة مُخالفة لكتابة الرجل أم مُشابهة له؟ أو بالأحرى كيف كانت كتابتها عن الرجل / الذكر؟ هل كتابتها عنه أكثر صدقاً من كتابات الرجل عن نفسه؟ هل كانت كتابتها كتابة مُغايرة لما هو سائد ومألوف؟ هل ألغت عن الرجل تلك الهالة المُحيطة به من القوة والعنف، وألبسته لباس الضعف والسكون؟

سيطرت فكرة الفحولة على المجتمع العربي إلى حدّ كبير، ممّا أثر على النصوص الروائية عامّة، والأنثوية خاصّة، وذلك راجع لكون هذه النصوص نتاجاً لثقافة ذكورية قبلية تُمجّد الذكورة على حساب الأنوثة، الأمر الذي جعل الخطاب الأنثوي، يهدف إلى تفكيك خطاب الرجل، وتحطيم الصورة النمطية التي رسمها للمرأة، التي كانت السبب الرئيس الذي عن طريقه سُلّبت إنسانية المرأة، وقُيّدت حريّتها، حيث تعتقد هيلين سيكسوس H.Cixous، أنّ الاختلاف القائم بين الرجل والمرأة ما هو إلاّ اختلافٌ بيولوجي ولغوي، يستوجب استثماره في الحديث والكتابة لتمثيل الأنوثة تمثيلاً إيجابياً، داحضةً ما هو مُتعارف عليه في النسيج الاجتماعي المعتمد على الفوارق الجنسية المُعلي من شأن الأول، والهدف من ذلك كلّ قلب موازين اللغة المذكورة رأساً على عقب، هذا النوع من الكتابة يُطلق عليه تسمية الخطاب الأنثوي⁸، سمته الجوهرية الجرأة في الطرح، وهدم المقولات السابقة وإعادة بناء تصوّرات تُعلي من شأن الأنثى في كل الميادين؛ لتزد به الكتابات الاعتبار لأنفسهنّ، وهذا باتخاذهنّ القلم الذي ظلّ لقرون عدّة أداة ذكورية بامتياز وسيلة لذلك .

لقد كانت الكتابة الروائية فضاءً عبّرت فيه الذات الكاتبة عن معاناتها وتطلّعاتها، ونظرتها، وتُعتبر قضية الذكر/ الرجل، خاصّة ونحن في مجتمع يُقدّس الرجولة، و(ينظر إلى الرجل كذات مُستقلّة عن المرأة، الرجل يتمركز حول ذاته ويُحقّق ذاته دون أن يلومه أحد، ودون أن يتهمه أحد أنّه ضدّ الأخلاق أو الدين)⁹، من بين القضايا التي خاضت غمارها الكاتبات الروائيات عبر نصوصهنّ؛ إذ سعين جاهدات لرصد حضوره البيولوجي، والسيكولوجي، على أرض الواقع، وفي مخيلتهنّ، وهذا ما يتجلّى بوضوح في نصّ رجاء عالم الروائي - خاتم -، من خلال نماذجها الذكورية المُختلفة.

3 - مظاهر الحضور الذكوري في رواية خاتم:

يزخر نص الرواية المُختارة ل: رجاء عالم - خاتم - بشخصيات ذكورية عديدة، إلّا أنّنا لن نتناول هذه التعدّدية، بل سنقتصر على ثلاث نماذج ليس إلّا، باعتبارها المحرك الرئيسي للنص والذي تدور في فلكه بقية الشخصيات، وتُبيّن بوضوح نظرة الروائية إلى الرجل، فقد افتتحت عملها بظهور الذكور الثلاث ذوى انتماء طبقي: سند ابن فرج العبد العامل لدى الشيخ النصيب، وخاتم ابن السيّد - ثري من أثرياء مكّة - الشيخ نصيب، وهلال ابن - حرّ - الشيخ طالب المهاجر ملكة بُغية التعلّم ونشر العلم.

ما يلاحظ على الروائية هو براعتها في اختيار التسميات لشخصيات نصّها الروائي فكل اسم يحمل على عاتقه مهمة توصيل دلالات الأفعال التي تقوم بها شخصيات الرواية والأدوار التي رُسمت من أجلها؛ فالتسمية هنا لم تكن اعتباطية بل لها أهداف مُسطّرة تروم لتحقيقها، (إنّ أسماء الأعلام ليست بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد بطاقات، بل تكتسي دلالات عدة، إنّها تمهنا معلومات مُتعدّدة حول الشخصيات وعلاقاتها باهتمامات الكاتب و أفكاره وأذواقه الأدبية وبحته الذي لا يني عن الذات والآخر).¹⁰، فالاسم يحيلنا مباشرة إلى الدور المُسند إلى الشخصية وما ستقوم به من أفعال.

يتمحور عالم الشيخ نصيب والد خاتم حول سنده - الذكر -، فهو الذي يمنحه جواز المرور والاستمرارية في هذا الوجود، وإذا كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا فقد أخذ الشيخ نصيب نصيبه من هذه الدنيا في الشطر الأول - المال -، ولم يبق عليه سوى الحصول على النصف الآخر، إلّا أنّ لعنة الحرب والأوبئة التي مسّت المنطقة التي يقطنها حالت دون ذلك، فباءت مُحاولاته الست بالفشل ممّا جعله يبحث عن سند له حتى لو لم يكن من صلبه، فقد ورد على لسان زوجته القول الآتي: (كل هذه الأعوام ونارك يا شيخي نصيب تتجمّع لبذر حامل الاسم

، والآن ها أنت تتشئت صوب المنافس ومن العبيد ، خرت واستخرت ابن جارية لصبةً مرجلك ، لصبةً نصيب .¹¹ ، ليتني ابن عبده فرج، فرج الذي جاء على يده الفرج، وخرج من صلبه سند، السند الذي يستند إليه الشيخ نصيب في كبره .

أ / - سند :

بالعودة إلى المعجم نجد أنّ السند هو ما رُكن إليه، واعتمد عليه¹² ، وهذا ما تُحقّقه شخصية ابن الشيخ نصيب بالتبّي، و الذي أُطلقت عليه تسمية سند تيمناً، ليغدو اسماً على مُسمّى، وقد : (تقبّل الشيخ ذاك التكريس، صار يُقدّمه بالقول : "سندي ... " يقولها بفخر أقرب للنبوة أو للوعد بالخلاص . أغدق عليه كوله)¹³ ، هذه المقولة تُبيّن أنّ الرجل لا يخجل من تبين مواضع ضعفه وحاجته للآخر / الابن دونما خشية من أيّ شيء، بل ربّما يُصرّح بحاجته له، وبافتخار، على عكس لو كانت حاجته لابنته / الأنثى، لاختلف الأمر وكان تصرّفه مُخالفاً لذلك تماماً، ولعلّ مردّ ذلك إلى كون : (الرجولة هي الميراث الوحيد الذي يُمكن أن ينتقل من أبٍ رجلٍ، إلى ابنٍ مُرشّح لأن يكون رجلاً في مجتمع أبويّ يضع رجولة الرجال فوق كل قيمة)¹⁴ ، ممّا يتوجّب وجود الذكر في العائلة حتى يتسوّى للأب تسليمه وتوريثه مشعل الرجولة، ليكون خير خلف لخير سلف .

يُعدّ سند في نظر الشيخ نصيب بمثابة عمودٍ للدار، هذه الفكرة لم تكن حكراً على الشيخ نصيب فقط، بل ترسّخت حتى في ذهنية بقية أفراد عائلته، وهذا ما ورد على لسان خاتم وهو يُحاور أخاه سنداً قائلاً : (يراك كعمود لهذه الدار. أنسيت : أنت سند شيخوخته)¹⁵ ، فهو ركيزته الأساسية التي يتركز عليها في كبره، واللينة الأساسية التي تقوم عليها الدار - دار الشيخ نصيب - .

يتمحور عالم شخصيات رواية رجاء عالم على فكرة الذكر، لذلك تعمّدت تسمية الولد بـ : سند فهذا الاسم جعلته المهدي المنتظر، المنقذ لشخصيات مُختلفة ذات مكانة مرموقة في المجتمع : كالشيخ نصيب، وتحقيق رغبته، كذلك كان مُرافقاً لخاتم في جولاته ومغامراته الاستكشافية، وكما كان ركيزة الشيخ نصيب، والحافظ له، كان أيضاً حافظاً لأصول الصنعة، فقد تتلمذ على يد شيخ الجواهرجية سفرياقوت ، وتعلّم منه صنعته التي عادة ما تُلقّن أصولها، وأسرارها لنسل صانعها، وسفرياقوت لا نسل له إلاّ ولد أخذه السفر عنه بعيداً.¹⁶ ممّا جعله يتبّع هو الآخر سنداً ليُلقنّه أصول صنعة الأجداد قبل أن تنفَى الأجساد، وتطلع الروح إلى ربّ العباد.

ب/- هلال:

ارتبط ظهور هلال في الرواية بوجود الشخصية المحورية خاتم، فقد كان يرافقها أثناء طفولتهما في تلك الجولات السرية لاكتشاف دار الشيخ نصيب، والطبيعة والوجود، تقارباً روحي يجمع بينهما، هلال بسواده، وخاتم ببياضه، علاقة غريبة تجمعهما، أثارت حفيظة زوج الشيخ سكينه، التي لا تخل من إبداء مشاعر الاحتقار له، فهي سرعان ما أنهت هذه العلاقة وأغلقت الأبواب في وجهها، هلال فتى مشاغب ومتمرد لم يسلم أحد من شغبه، وشيطنته، فلا حيوان سلم من بطشه، ولا بشر، يهوى التعليم على ضحاياه تاركاً توقيعه، ليكون بمثابة ختم خاص به، وكأنه ينزع إلى وشم أجساد ضحاياه لإذلالهم والحد من قيمتهم، فالتعليم كوشم الختم يترك أثراً في الجسد، وهذا الأثر لا يمحي، مهما طال عليه الزمن، بل يبقى راسخاً فيه مُدلاً لصاحبه، حيث: (شعر الكل بالخطر، شعروا بتوق هلال للإذلال، هو لا يُقاتل ليقُتل إنما وفقط ليُمَرِّغ الأنوف في التراب، تُحرّكه شياطين مهانة تتقد للوجوه المعقّرة الكسيرة، الوجوه المخلوعة من عزّها وسوددها. وهلال - مُخلصاً لشياطينه تلك - يُركّز ضرباته على ما يوجع ويدفع الضحية للركوع لا أكثر)¹⁷، أفعال أقل ما يمكن القول عنها أنها شيطانية خطيرة، هذا الخطر الذي لا ينتهي جعل الرجال يتمنون لو كانوا نساء يلتزم بيوتهم محميات من خطر هذا الفتى، المُحدّق بهم من كل صوب وحذب، يكتسي وجود هذا الفتى في مجتمعه، وكل من هم حوله بتلك الهالة من الغموض والقوة، ففي كل مرة كان يغيب فيها يعود ليظهر بقوة أكبر، فمهما كانت درجة هذا الضعف والألم، فإنه ينبعث منهما من جديد؛ ليكون أكثر قوة، وصلابة، ظهور هلال وغيباه مُقترن بالقمر، وبالعودة إلى قاموس الأسماء نجد أنّ اسم هلال يعني: (غرة القمر، واسم جدود وشعراء جاهليين، وقائد شجاع من بني تميم، ومؤرخين وفقهاء أحد ملوك الطوائف في الأندلس)¹⁸، وهذا ما ينطبق فعلاً على صاحب هذا الاسم، من شجاعة وقوة، وروح قيادية، يلجأ إليه في الأوقات الصعبة، والمواقف الخطرة فقد: (صار هلال الحامي لمن لا حامي له، صار المفضّل لمُرافقة المواقف الواقعة في خطر)¹⁹، ما يُلاحظ على هذه الشخصية الذكورية هو: أنّ حضورها في نص الأنثى كان حضوراً إيجابياً، حملته أفكارها ورؤاها، فعن طريق لهجته الساخرة التي كان يُخاطب بها خاتم؛ تُقدّم الروائية نقدها للمجتمع، والسلطة الأبوية.

لقد رصدت الروائية بعض الأفعال التي يقوم بها الرجل، والتي تُعبّر عن نظريته المُجحفة في حق الأنثى، واللمجة الساخرة التي تُوجّه للأنثى ما هي إلاّ تعبير عن سوء نظر - نظرة الرجل للمرأة نظرة تشوبها السخرية والتهكم، ومن بين بعض هذه الأفعال: المعاملة القاسية التي تُعامل

بها خاتم من طرف هلال، فهو يسخر منها على الدوام إلا أننا لم نعرف ما هو سبب هذه السخرية أهو الحقد على والدها كونه بائع رق، أم بسبب حادثة الباب، وما نتج عنها بحرمانه من دخول بيت الشيخ نصيب، والتواصل مع خاتم عندما كانا صغيرين، أم الغيرة منها لكونها متألّفة مع الآخرين فقد: (تأمل فيها ساخرًا ثم أكمل بجديّة، من يعلم، ربّما أنت أكثر شجاعة منّا جميعًا تركت النعيم للحميم بينما نحن كالكلاب المسعورة نشحذ الفتات على بابكم)²⁰، هلال دائم التشكيك في أفعالها وصدق نواياها، هل كانت نابعة من القوة والشجاعة أم لها أغراض، وأهداف ونوايا خفية ربّما لا تكون إلا سيّئة، لهجته الساخرة التي لا تُفارقه ما إن يرى خاتم تثور ثائرتة وتطغى سخريته على الموقف وكأنّه يتقصّد إيذاءها، ويتفنّن في جرحها ها هو يقول لها في لقاء جديد جمعهما صُدفة: (أبوك تاجر عبيد وأنت تنطقين بأصوات السحرة والكهان. هذا العود الذي لا يُفارقك، هو لسان إبليس وتنجّرين على اختراق الحرم يا ابنة الأكابر)²¹؛ سُخرية هلال جاءت ناقدةً لأسلوب الأب، وكما هو معروف أنّ واضع سلطة المجتمع هو الأب، هذه السخرية غرضها الرئيس هو توجيه ملاحظات للمجتمع ككل، ونقل حيّ لما هو سائد فيه، وأنّ كل محاولات من يريدون التغيير ستُقابل بالرفض والذمّ، ويتجلّى ذلك في شخص خاتم التي تتعرّض للنقد القاسي لأقصى درجات تصل للتجريح والأذية.

يُمثّل هلال نظرة المجتمع الدونية للأنثى، والتي تحتقرها إذا حدث وتمردت وأرادت إثبات ذاتها ووجودها، فالأنثى تُقابل بالرفض والمقاطعة، وعدم تقبلهم لها، وهذا ما تُثبتته تصرفاته وأقواله تجاه خاتم فقد قام بضررها مثلاً عندما خرجت من بيتها ليلاً، لترافق المسحراتي في دورته ليُصيها في منطقة حسّاسة، كادت تودي بحياتها: (كان الحجر قد ترك نقرته في رأس خاتم، فوق الأذن مباشرة)²²، جعلت الروائية هلالاً بمثابة الحارس الأمين للمجتمع، والساھر على تطبيق قوانينه ومقولاته وكل من تجرّأ أو تجرّأت على اختراق هذه القوانين وقف له بالمرصاد، مُوجّهاً له نقدًا لاذعًا فمثلاً في المقطع الآتي نجد خاتم تتساءل بعقل يعي جيّدًا نظرة المجتمع المُقيّدة للأنثى، والتي تقف بالمرصاد لكل من يودّ تغيير ما هو سائد ومُتعارف عليه عن السبب الذي يجعل المجتمع يقف في وجه من يريد تغيير الأوضاع السائدة إلى ما هو أحسن وأفضل قائلة: (ألا تعتقد أنّ ما يفعله أبي يستحق الانتقاد؟ أنظر لبنات البيوت بما فيها بيتنا، ولا بنت منهنّ تنظر للطريق بدون قُنعتها، وجه البنت لا يظهر للغريب، بينما أنا أجالس رجال أبي، وأطلع في خرجاته، وأهبط كلّ صباح لحلقة الشيخ مستور بالحرم)²³، مجتمع يُقابل خروج المرأة إلى الشارع، دون حجاب، وطلب العلم، بالرفض لأنّه بمثابة خرق، والخرق يُرفض ويُقاوم بشدّة، من قبل الآخرين فهم بمثابة حارس أمين، هذا الحارس الأمين تكلمت بلسانه الروائية لأغراض خاصّة، فنقده الذي يوجهه وأفعاله التي يقوم بها لن يتقبّلها المجتمع لو كانت

صادرة من أنثى، هذه الحيلة فتحت الباب على مصراعيه للروائية الأنثى تقول فيها ما تؤد قوله وسهلت مهمتها.

ج / - خاتم :

وهي الشخصية الرئيسية التي يقوم عليها النص الروائي، والمفجرة لمسألة الذكورة والأنوثة، فإذا كانت الروائية قد أشارت إلى الظروف المحيطة بولادة سند، فإن الأمر بالنسبة لخاتم عكس ذلك تمامًا؛ إذ نجد أنفسنا أمام مشهد ولادة زوجة الشيخ نصيب والتعظيم الممارس والتكتم حول جنس المولود، منذ البدء لم يحدّد جنس المولود سوى قولهم سميت على بركة الله خاتم، ف: (صباح تلك الولادة لم ترتفع زغرودة في قلوب الشقيقات، ولادة من الدهشة والخيبة، حيث انقطع سيل التوائم فجاء مولود فرداني، هكذا أصبح البيت على " خاتم ")²⁴، لتكون خاتمة الولادات، وخاتمة النهايات، وخاتمة الموت المترّص بذكور العائلة، خاتمة الأحلام بالولد الذي يحمل الاسم، ويكون السند للشيخ عند كبره، وربما خاتمة للموت المترّص بالذكور؛ فإذا لم يأخذهم الوباء أخذتهم الحرب، فخاتم من الخاتمة: (والخاتمة من كل شيء عاقبته)²⁵، هذا المولود الجديد الأخير حُمّل على القيام بمهمة مزدوجة .

لقد جعلت الروائية مسألة التذكير والتأنيث مسألة محورية في عملها، فأحداثه تجري من خلال تقلّب الشخصية المحورية خاتم بين الجنسين ذكر / أنثى، هذه الشخصية المهمة التي لم يتحدّد جنسها تحديدًا قاطعًا ممّا يُصعّب علينا معرفته، فمثلًا أثناء حديثها عن طقوس الاستحمام نجد إشارات إلى التكتّم الذي لا يزال قائمًا، حتى بعد بلوغ خاتم سن الثانية عشر، توصف هذه الطقوس في المقطع الآتي: (جمر بمصطكا يتخلّل ما لم تتخلّله يد الأم يُحصّن العضو المُتكتّم على هويته)²⁶، فحين تحضر الذكورة يحدث غياب تام للأنوثة والعكس صحيح، رجاء عالم تسعى من خلال عملها إلى الكشف عن خبايا الجنسين، وإبراز أهمية الأنوثة في مجتمع عربي يُعلي من قيمة الذكورة إذ يرى بأنّها هي الأصل، وهي منبع الأمن والراحة، ومع ذلك نجد دروب مدينة خاتم أثناء أيام الحرب خاوية من ذكورها، فالذكر نبتة لا تطلع إلّا في الأمن حسب قول الروائية، لتبرز بذلك الأنوثة، من خلال لجوء ذكور المدينة إلى التخفي في لباس الأنثى ليسلموا من شرّ الحرب، وبهذا يتأكّد لنا أنّ تارجح الشخصية المحورية بين ثوبي الأنوثة والذكورة، ما هو إلّا تعبير واضح على أنّ كل من التأنيث والتذكير: فكرة ثقافية من صنع المجتمع، وهذا ما يؤكّده عيسى برهومة في قوله إنّ: (التذكير والتأنيث مفهوم ثقافي، وتصوّر ذهني، وليس قيمة جوهرية)²⁷، وعليه فمسألة التجنيس مسألة يمكن قولبة الإنسان فيها بهيئة وصورة مُعيّنة، إذ لا توجد طبيعة أو خاصية جوهرية تُعدّ حكرًا لجنس دون آخر، فالمرأة

مثل الرجل تماما، لها تاريخ وكيان، ووجود، وهذا ما تُعبر عنه سيمون دي بوفوار، Beauvoir Simone De (لا يولد الإنسان امرأة، بل يُصبح كذلك، إلا أن هذا التاريخ، أفقر الحضارة الإنسانية، منذ آلاف السنين بإقصاء مركبه الأنثوي)²⁸، هذا الإقصاء جعل الروائية تسعى لرصد تحركات الذكورة عبر نصّها، مُبيّنة الجانب السلبي فيها، والمسكوت عنه، وذلك بُغية تغيير ما هو مُتعارف عليه في الذهنية العربية المُعلية من شأن الذكورة على حساب الأنوثة، وإعادة الاعتبار لذاتها، ولبنات جنسها.

أثناء تتبّعنا لنص الروائية نجد أنّ أفكار سيمون دي بوفوار مبثوثة فيه، ويتجلى ذلك بوضوح في حديث زرياب مع رفيقاتها عن خاتم: (كلنا ذكروا أنثى، لكنّ المشكلة في الوقت، متى يُدوّن آله؟ متى يُلعبها لتشطّح في لحن الأنثى، أو بالعكس، متى تنفلت آله لتعطي نفسها للحن الكامل، الذي تتحاور فيه نغمة الذكر بنغمة الأنثى في نفس الرنة...) ²⁹، وهي بذلك تُقرّ بأنّ الذكورة والأنوثة صفات مُجمعة في الإنسان، ويتوقّر في كل واحد فينا ذلك الشطر الآخر، شطر ذكر، وشطر أنثى، ممّا يُتيح له إمكانية اختيار الوضعية التي يودّ أن يكونها، وخاتم نقل حي، ومباشر على صحّة هذه الآراء فهي ليست أنثى / امرأة، ولا ذكراً / رجلاً، فمرة تظنّ أنّها فتاة ومرة أخرى تظنّ أنّها ذكر، أو لعلّها مزيجٌ من الاثنين، فقد ألهتها الروائيّة على الجمع بين خاصيتي الأنوثة والذكورة، ممّا جعل المحيطين بها يُطلقون عليها تسمية الخنثى، حيث ورد على لسان هلال مُخاطباً لخاتم: (سلام؟! ابنة نصيب الخنثى).³⁰ والخنثوية * حسب سارة جامبل عادةً ما (تُشير إلى ميوعة تحديد الخصائص المرتبطة بالتذكير والتأنيث. وتذهب نسويات دائماً إلى القول بأنّ الخنثوية مفهوم يُمكن أن يكون مصدراً للتحرّر).³¹ ويهدف الجمع بين الخاصيتين التوصل إلى التكامل والتحرّر، وهذا ما يتجلى بوضوح في تصرّفات خاتم البنت / الولد، التي نشأت بميول رجالية: كالشجاعة والتمرد، وارتياح الأماكن التي تُعدّ حكراً على الرجال دون النساء.

جعلت الروائيّة من الأنوثة والذكورة ثوباً تلبسه خاتم، وتغيّره حسب الظروف والمواقف، حيث كان لكل طقسٍ ثوبه: فلطلب العلم، والذهاب للمسجد، والجلوس في مجلس الشيخ نصيب، والقيام بالأمور التي تُعدّ حكراً على الذكور فقط يتوجّب عليها ارتداء الثوب الخاص بذلك، والتخلّي عن ثوب الأنثى، ممّا يؤهلها لأداء دور الذكر، ولا تواجهها أيّة صعاب ويتمثّل هذا الثوب حسب الروائيّة في: (كومة من ثياب الصبيان: ثوب وعمامة وجُبّة سوداء من جُبيب العلماء، وحزام قصب عريض، مالت للصُفّة الملحقة بالمقعد ونضت إحرام المُصطكا، فكّت أزرار الذهب وألقت بصديرة القطن الرهيف، وألحقتها بالسروال الحلبي المُزترّ بكروم أبي

نواس، بسلاسة اكتست ثياب الذكر، محين دخلت المقعد قام الشيخ نصيب فأحكم على خاصرتها حزام القصب، صارت خاتم في هيئة صبي مليح³²، وفي الأماكن المغلقة كالحمامات والغرف العليا من البيت وغرفة النوم، والتجمعات الأنثوية كالأفراح والولائم، ترتدي ثوب الأنوثة وهذا ما يُبينه المقطع الآتي:

(تلك الليلة سيُفتح بيت نصيب لاحتواء عرس ابنة جيرانهم. هذا يوم تتأث فيه خاتم قضت الصباح مع أمها وزوجة الجيران خديجة ... جلست في محرمتها وصديرتها)³³. نستنتج أنّ ثوب الذكورة يظهر عندما يكون الطقس جاداً، ودينياً فقط إذ: (نادراً ما تهبط النساء لصلاة الجمعة بالحرم، هو طقس ذكري، وحدها خاتم تجلس هناك لا تمس الحصا تُشارك الرجال في الإنصات)³⁴، أمّا ما له علاقة بالأمور التي ترفه عن النفس فتقوم به في ثوب الأنثى كحضور الأعراس

وسماع الموسيقى، والراحة واللهو، كما أنّ حضور الذكورة يعني الغياب التام للأنوثة، والعكس صحيح، ويستحيل القيام بالوظيفتين معاً في آن واحد.

ما يُلاحظ أنّ كلا الثوبين يليق بخاتم ممّا سهّل عليها تغييرهما بالتناوب دون أن تعترضها أية مشكلة، وكل هذا كان بمباركة والدها الشيخ نصيب، الذي لجأ إلى هذه الحيلة لأغراض لم تُصرح بها الروائية مباشرة بل لمحت إلها في أكثر من موضع، ليتجلى غرضها بوضوح في نهاية الرواية، هنا إشارة هامة مفادها صحيح أنّ الأنوثة والذكورة صفات مكتسبة، وليست جوهرية إلا أنّ ذلك لا يعني أنّ المرء بإمكانه تغيير هذه الأثواب دون موافقة السلطة البطيركية* بل يبقى خاضعاً لها، فهي وحدها من تُقرّر، تقرّر متى تكون خاتم أنثى، ومتى تكون ذكراً، وما يؤكد خضوع خاتم التام لقانون الشيخ نصيب، تساؤلات زرياب الحلبية المطروحة عليها ذات يوم ("ماذا ينتظر الشيخ نصيب لكي يستقرّ بك في جنس؟")³⁵، هذا المقطع يُبين بوضوح الخضوع، والخضوع للسلطة الأبوية، إذ يُصوّر حقيقة إمكانية الثبات على جنس واحد راجعة إلى سلطة الرجل، هو الذي يقرر، وحده الشيخ نصيب صاحب الكلمة، والمسؤول عن تجنيس خاتم أنثى أو ذكراً وقتما يشاء، وهذا ما تُفكر به خاتم بصوت عالٍ: (كلمة واحدة كفيلة بشطري نصفين ... في الثامنة عشرة، في كل العشرين، في الثلاثين، في غمضة عين سيتحتّم على أبي الاختيارلي بين جسدين. أنظنّ لي في هذا الجسد خيار؟ أم كل الخيار للشيخ نصيب؟ هو وليّ هذا الجسد أم أنت الولي؟ من سيفقرّ إرسائي لذكر أو لأنثى؟ ومتى؟)³⁶، تتساءل خاتم هنا عمّا إذا كان هناك معنى لخيارها، ما دام الشيخ وحده هو من يقرّر، وما عليها إلا التطبيق، مع أنّها رغم ذلك هي صاحبة هذا الجسد المتحوّل.

تصور هذه الرواية الصراع الذي تعيشه البطلة خاتم بسبب ازدواجية جنسها، وتأرجحها بين عالي الأنوثة والذكورة، وعدم قدرتها على الاستقرار في هوية معينة، فقد (كان شعور خاتم مُلتبسًا تجاه ما يحدث لها، لا تعرف أتحجّ مُتخذة موقفًا نحو الذكورة أو الأنوثة، أو تستسلم أكثر لنعمة الوجودين بين الذكور والإناث)³⁷ : لأن ذلك يعني انغلاق باب العوالم المخفية لأحد الجنسين، كيف لا؟ وهي اعتادت على السلطة في ثياب الرجل، والحنان والعاطفة في ثياب الأنثى، وتبين أنّ سبب هذا الصراع راجع للسلطة الأبوية .

خاتم في حوارها مع سند تُخبره عن الأسباب التي تُبقيها مشدودة إلى ثوبي الذكورة والأنوثة معًا، وعدم قدرتها على الاختيار بينهما، ممّا جعلها تبقى في هذه الوضعية مُتمسكةً بهما كليهما، فلكل ثوبٍ محاسنه ومزايده، وهذا ما يتجلى بوضوح في المقطع الآتي : (تمنحني مكانًا أوسع للحركة ، أنا لا أطيق البقاء مع أخواتي في المبينات ووراء البرقع، أحبُ نظر الناس في عيني ونظري في عيون الناس على الطريق ... أحبُ الاختباء وراء أستار الشقدوف *، لأنصت لأخفاف ** الجمل على صخر الجبل، لكن ليس حين أريد أن أرى وأريد للأشياء أن تراني ، أحبُ النقلة بين الشيء وما بعده وقبله أو ورائه أو نقيضه، أحب مراقبة النساء الدخول في مجالسهنّ وأسرارهنّ لكن لا أريد أن أكون سرًا محبوبًا هناك، لا أريد أن أخبأ، وفي الوقت نفسه لا أريد أن أنكشف)³⁸ ، نجد خاتم هنا لا تحب البقاء على شاكلة واحدة، وصفة واحدة بل تعجها الازدواجية التي هي عليها الآن ممّا يُسهل عليها الكثير من الأمور فالذكورة تعني مركز السلطة والقوة ، فهي تمنحها الحرية، وتسمح لها بالتطلع إلى العالم الخارجي – مكان مفتوح - ومعرفة ما يدور فيه من أمور، دون قيد أو رقابة، والتواصل مع الناس، ولكي يكون التواصل ناجحًا معهم، يتوجب توفر المباشرة ممّا يتطلب فسح المجال للعين لمخاطبتهم دونما حرج، بينما الأنوثة عكس ذلك تمامًا فهي تعني القيد و البقاء في مكان مغلق، والتواصل مع الآخرين عبر وسيط، أو تُجبرها على تغطية عيونها ومُخاطبة الناس، وعيونها في الأرض لا تسمح لها بممارسة حياتها بصفة طبيعية، فهي تُصنّفها ضمن الحريم وتُخضعها لما يُسمى بالحجب والستر، ومع ذلك فهي تُحبّ الأنوثة لأنّها تمنحها معرفة ذلك الجانب الخفي والمستور، والمسكوت عنه، بتواصلها مع النساء في مجالسهن.

خاتم تهوى التذكير والتأنيث من زاوية إيجابياتهما، ولا تودّ البقاء على هوية واحدة لما تحمله من جانب سلبي، إلّا أنّ الوضع الذي هي عليه يجعلها مُنكشفة للآخرين، ممّا يُسبّب انزعاجًا لها فهي تكره أن تكون مخفية ومُنكشفة في الآن ذاته.

تختتم رجاء عالم الرواية بمفاجأة صادمة؛ تحدد فيها جنس خاتم المكتّم عنه، والذي تأرجح، بين الأنوثة والذكورة، وطال التساؤل حول حقيقته ما شاء لتعلو بذلك الدهشة بين شخصيات نصّها قبل أن تعلونا نحن أيضا كمُتتبعين لنصّها، فقد: (ظَلَّت دهشة الخديعة محفورة على وجه هلال في موته، محفورة في عيون الأخوات والجواري وتلك المُتَلَصِّصَة من وراء الرواشن، كلّها جاحظة لما بين ساق خاتم الملقى على الطريق عار مكشوفًا للرواشن والعيون، وشهوة الحكايا)³⁹، فهي في كل مرة توهم المتّبع لأحداث نصّها الروائي بأنّه توصّل لتحديد ماهية جنس خاتم، إلّا أنّه وفي كل مرة نجد أنفسنا أمام التساؤل ذاته: من هو أو هي خاتم هذا؟ أهو ذكر؟ أو أنثى؟

الهدف من التسمية التي أطلقها الشيخ نصيب على خاتم هو التمني: تمّي أن تتوقف الحروب، ويختفي شبح الموت المُتَرَيِّص بالذكور، تمّي تغيّر وضع أمة خاتم؛ ليكون زمنها زمن خاتمة للأوبئة، والحروب الموديّة بحياة الذكور، وما لجوءه لهذه الحيلة الازدواجية موهمًا بها من حوله بأنّ مولوده أنثى، ما هي إلّا ليُجعل بذلك الأنوثة بديلاً للذكورة وحلّ يلجأ إليه للتخلّص من المصاعب، والهرب من الموت، لعلّ هذه هي الإجابة على سؤال مُحيّر كان يدور في مخيلة المُحيطين بخاتم، وكل من عرفها ك: هلال، زرياب...، حيث كان ردّ خاتم على مُختلف الأسئلة، سواءً تلك التي لم تُوجه لها بصفة مُباشرة، أو التي كانت موجهة لها بصفة مُباشرة ففي المقطع الآتي: (قالت زاجرة: "وما أدراني؟! ... هتفت بعد تفكير،

"رُبّما ينتظر أن تتوقف سيول الرجال الذين يطرقون الأبواب بالموت ...)"⁴⁰، ردّ خاتم يُحيلنا إلى طبيعة جنسها، فإذا كانت في ثوب أنثى فإنّ بداخل هذا الثوب العكس تمامًا، ردّها يُبيّن أنّها ذكر والسبب الرئيس الذي دفع بالشيخ نصيب بأمرها على التناوب في اللباسين هو خوفه من الحرب الذي تأخذ كل ذكر/رجل، عنوة وإجبارًا، يخوضها وهو مُرغمٌ، حربٌ لا يملك فيها لا ناقة ولا جمل، وكما هو معروف أنّ الشيخ نصيب له ست بنات، ولا سند له ممّا يفسّر السبب الذي جعله يُخفي هويّة جنس خاتم، فكانت خاتمة خاتم القتل على يد أمراء الحرب التي لا طالما احتاط منها الشيخ نصيب لكن هيمات لا بدّ من الموت من التحقق على يد من كانوا مصدرًا للخوف، منهم هم بالذات.

جعلت رجاء عالم نصّها يبدأ بظهور الرجال الثلاث، وختمته باختفائهم - بموتهم -: فقد اتخذت من فعل القتل طقسًا لردّ الاعتبار للأنثى ولإعلاء مكانتها التي بُخست منذُ أمد بعيد، فحسب قول حسين المناصرة: (يُصبح قتل الرجل وتغييبه عن السرد معادلًا موضوعيًا لقتل سُلطة الذكورة وقوّتها)⁴¹، أرادت الروائيّة بفعل القتل جعل الأنوثة بديلاً للذكورة، وتنحية

الرجل، ووضعه جانباً كأنّها بممارسة هذا الفعل تُوحى بالعودة إلى المجتمع الأمومي: (عودة رُثما غير واعية إلى فرضية أنّ المرأة هي أصل العالم)⁴²، وأنّ تلك الهالة المُحيطة بالرجل مجرد هالة مُزيّفة، والدليل النهاية المُساوية لرجال نصّها، خارقةً للمقولة القائلة بأنّ الرجل هو السند والداعم للأسرة والحامي لها، وأنّ الرجولة من الشدّة، والقوّة، فبدا رجالها ضعفاء جبناء، وما اختفائهم في نصّها عندما حي وطيّس الحرب بين الأمراء إلّا دليل على ذلك.

كذلك نجد الصوت الأنثوي قد كان عاليًا وواضحًا، ويتمثّل في بروز سُلطة الأنثى، فقد مثّلتها الروائيّة بسُلطة الجواهر غير المُتناهية، وطاعة سند لها طاعة عمياء، فالجواهر تخصّ الأنثى ممّا يؤدي بالضرورة إلى معنى رغبة الأنثى الجامحة في السلطة، والنحكّم في زمام الأمور.

II - / سرد الأنوثة بلغة الذكورة :

وسنقوم بالتركيز في هذا العنصر سرد الأنوثة بلغة الذكورة باعتبار السارد شخصية ذكورية لا باعتباره شخصية ساردة للنص. أوهمتنا رجاء عالم بأنّ خاتم أنثى في ثياب ذكر، والدافع من وراء ذلك هو التعبير عن رغبة الرجل العربي بوجود الذكر الذي يُمثّل امتدادًا لنسله، كما أنّها لجأت إلى حيلة السرد بلغة الذكورة، ولعلّ رغبة المرأة في تقليد الرجل مُعتبرة إياه النموذج والمقياس الذي يُقتدى به، والسير على منواله، لهو سبب راجع إلى: (أنّ هناك فروقات طبيعية بين الرجل والمرأة أثّرت على الكتابة عند كل منهما، فترى .. أنّ الرجل كان النموذج ، ولا ضير أن تصبو إليه المرأة حتى في كتاباتها)⁴³ ، رغم أنّها اتّبعَت النموذج، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ الصوت الأنثوي غير موجود على العكس؛ فقد كان واضحًا في نصّها الروائي، وظلّ صدها يتردّد في أقوال شخصياتها والحوارات التي جرت بينهم، ف: (الكتابة تتفنن في التمتع بسلطة الكلمة عبر سحجها من الرجل - لا بالمعنى المباشر، بل بالمعنى الرمزي - تارة، وإرجاعها إليه تارة أخرى ليقول ما تريده أن يقول ؟)⁴⁴ ، وما لجوءها إلى ذلك إلّا بُغية توجيه نقدٍ للمجتمع ومختلف الظواهر الموجودة فيه، مُبديةً رؤيتها وأفكارها على لسانه فتُسكت بذلك كل من تسوّّل له نفسه بتوجيه النقد لها، فالسرد بلغة الذكر يفسح لها المجال عن التعبير عن رأيها بحريّة، ويُمكنها من أن تنقّد، ولا تُنقّد لماذا قالت ما قالت، والتمسك بزمام الأمور لتكون السُلطة بيدها هي.

عندما أوهمتنا رجاء عالم بأنّ خاتم أنثى في ثياب ذكر تبادر إلى أذهاننا بأنّ هذا ما هو إلّا تعبير عن الرغبة في السُلطة وتبوأ مكانة مرموقة مثل مكانة الرجل، إلّا أنّ المفاجأة التي ختمت بها نصّها خرقت أفق انتظارنا وكل توقعاتنا، ففي نصّها هذا أرادت أن تُثبت بأنّ: (الأنوثة

والذكورة ليس لهما أساس بيولوجي، لكنّ بناءهما يتمّ بواسطة العلاقات الأسرية للطفلة / الطفل.⁴⁵ كذلك أرادت تصوير الجانب الخفي من عوالم الذكورة، فكما أنّ الأنثى تُعاني من اضطهاد المجتمع ونظرتها القاسية لها، فإنّ الرجل هو الآخر ضحية للمجتمع أيضًا، وخاضعٌ له.

وعن طريق هذه الشخصية أرادت أن تُبين لنا بأنّه لا أهميّة للمظهر الخارجي للمرء فالأهميّة الحقيقية تكمنُ في دواخل المرء وبواطنها، فما جدوى الاعتماد على المظهر لإطلاق أحكامنا على المرء؟ بل يتوجّب التركيز على اللب لا المظهر حسب رأي الروائية التي أوردت ذلك على شكل تساؤل طرحه سند أثناء حواراته مع خاتم متسائلًا: (ما أهميّة إذا كنا إناثًا أو ذكورًا؟! أعتقد أنّ الأهم ما وراء الثياب)⁴⁶، جعلت سندًا هو من يقول ما تودّ قوله ساعيةً إلى تغيير ما هو سائد في الذهنية العربية، ليكون الانطلاق في الحكم من جوهر المرء لا نوع جنسه.

كذلك عندما مارست السرد بلغة الذكورة أرادت أن تُقدّم نقدًا للمجتمع، نقدًا أنثويًا إلّا أنّ صوت المجتمع طغى على صوت الذكر، الذي عادة ما يكون صدى وترديد لصوت المجتمع وإذا حدث وأن كان هذا الصدى مُتمرّدًا عن صوت المجتمع علا الصوت الأصل على الصدى وهذا ما يتجلّى بوضوح في حديث الروائية عمّا حدث لخاتم وهي / أو هو في المسجد المهجور الذي حيكت حوله الكثير من الحكايا والأساطير، فقد مثّلت الروائية صوت المجتمع بهمس الريح وكأَنَّها هنا تودّ القول أنّ ما هو مُتعارف عليه في مجتمعاتنا متوارث، راسخ فينا منذ الوجود الأول فقد (جاءها همس الريح في حجارة المحراب :

" صلّوا على أبينا نوح ، صلّوا على أبينا آدم ... " أسندت شفقتها لحجارة المحراب وهمست:

" صلّوا على أمنا حوّاء ... " جاوبتها الريح تهمس :

" صلّوا على أبينا نوح ، صلّوا على أبينا آدم ... ")⁴⁷

أرادت خاتم إعلاء صوت الأنثى الأم إلّا أنّ ذلك الهمس الذي يردّ عليها كان بمثابة صوت المجتمع الذي يُعلي من مكانة الذكر على حساب مكانة الأنثى مُقابلًا كلّ محاولة بالتغيير بالهدم، والرفض.

سؤال يتبادر إلى أذهاننا كيف لثقافة مُجتمعية تُعلي من شأن الذكر / الرجل تُمارس كل هذا التكتّم والتعتيم حول ماهية المولود - خاتم - ؟ الروائية تودّ تقديم نقد للمجتمع، كيف لعضو صغير في جسد المرء هو من يتولّى تحديد ماهيته وجنسه، عضوٌ فاصل يتولى مهمة تصنيف المرء إمّا يرفعه إلى منزلة عُليا أو العكس ؟

هذا التكتّم الممارس هو نقد واضح لسلطة الرجل، ومحاولة جادة من الأنثى لإعلاء صوتها، وإيصاله خارقةً بذلك مقولة النموذج أنّ الرجل هو المقياس، أردات قلب الموازين وخرق ما هو موجود و متداول، ومُتعارف عليه.

III/- نظرة المرأة إلى الرجل :

يُعتبر الرجل منذ زمن بعيد هو المحور الرئيس الذي تدور في فلكه المرأة ، وهذا ما سعت رجاء عالم إلى خرقه، رغم وجود بعض الترسّبات التي بقيت عالقة في الذاكرة فقد أشارت إليها في حوار جرى بين شيخة الدحديرة، وإحدى بناتها مخاطبةً إياها قائلةً: (وليه المرمره يا بنتي، الراجل بارود وبنديق وتعميرة، تِرَوّق الطاس وتَحَيّ الراس وتُبعد الباس وتعبي بصائر الناس)⁴⁸ ، هذا المقطع يبين النظرة الأنثوية التقليدية للرجل، وهي نظرة تُكرّس ما ورثناه من مجتمعنا : المُقدّس لوجود الرجل، وضرورة حضوره في حياة المرأة، فعندما يغيب هو تُصبح محطّ أنظار الآخرين وأطماعهم.

قلبت رجاء عالم الموازين وخرقت ما هو معروف عن أنّ: (ميلاد الأنثى مصدره عجز جزئيّ في وظيفة الرجل ؛ إذ إنّ خلق الذكر هو القاعدة ، ووجود الأنثى هو الاستثناء)⁴⁹ ، عاكسة الأمر لتجعل من وجود الذكر هو الاستثناء في زمن كثرت فيه الحرب، أمراء يتناحرون حول الكرسي والسلطة راح ضحيتها رجال كُثُر حتى أصبحت الأنوثة حُلماً يتمنون تحقيقه، ليسلموا من الموت والعجز الذي يهدّددهم.

أرادت كذلك تصوير الجانب الخفي من الذكورة والحديث عن صفات ألصقت بالمرأة إلصاقاً حتى غدت مُتداولة في المجتمع على أنّها صفات أنثوية كالثرثرة والغيرة، صوّرت الرجال على أنّهم غيورين وثرثارين، والغرض من وراء كلّ ذلك هو الإشارة إلى أنّ هذه الصفات ليست صفات أنثوية فقط بل ذكورية أيضاً، حيث قلبت الآية بعدما كانت المرأة هي من تقوم بهذه الأمور صيّرت الرجال، وجعلتهم يقومون بذلك أيضاً، أرادت أن تقول لنا بأنّ هذه الصفات إنسانية يشترك فيها كلا الجنسين فهي ليست حكراً على جنس دون غيره ، مثلاً :

- الغيرة : موجودة عند كل من: سند لما عزف الشيخ ياقوت خاتم بأسرار الأحجار، وهلال عندما نجحت خاتم في كسب قلوب الفئة المَهْمَشَة وتشكيكه في مصداقية المشاعر التي تُبادلها

لهم (شيء في صوته يشي بغيره هلال من التألف بين خاتم وهذا العالم المنفي)⁵⁰ ، تُفسّر سخرية هلال ونظراته العدائية تجاه خاتم تفسيراً يشي بالغيرة غيرة الآخر من الأنثى ، تلك الأنثى التي استطاعت أن تكسب احترام الآخرين لها وتتألف مع الفئة المنبوذة في المجتمع والاطلاع على خفاياها وأسرارها، ومشاركتها في آلامها وأحزانها، فخاتم استطاعت في زمن وجيز الوصول إلى قلوب هذه الفئة، إلا أنّ هلال لا يزال يُشكك في صدق نواياها وعلاقتها معهم، ففي رأيه ما ذلك التألف والشفقة إلا تمثيل له أهدافه وأغراضه .

- كذلك الثثرة: وتتمثل في حديث السقاء اليميني عن الموقف الذي حدث له مع خاتم، وعدم هروبا منه عندما كان في بيتهم وهي في لباس الأنثى، والذي لا طالما رآها في دحيرة الشيخة في ثياب ذكر، هذا الموقف أثار تساؤلاته، وجعلها موضوعاً شاغلاً له ومثار حديثه ومحوره مع العام والخاص فقد (صارت هوية خاتم سر السقاء يوزعه في حنفيات مكة)⁵¹ ، وعليه فالثرثرة ليست صفة أنثوية تتميز بها الأنثى من بني الإنسان، وإنما هي خاصية بشرية يشترك فيها كل من الذكر والأنثى.

أرادت رجاء عالم جعل الأنوثة بديلاً جوهرياً للذكورة، وأنّ الأنوثة مثل الذكورة مطمح يطمح له كل رجل خاصّة في وقت الحرب، مُعلية بذلك الجانب الأنثوي، وإذا كانت الذكورة مطمح الأنثى فإنّ الروائية هنا خرقت ما هو سائد ومتعارف عليه وجعلت من الأنوثة مطمح كل ذكر، وإشارتنا إلى مسألة التأنيث على الرغم من أنّ موضع البحث يقوم على الحضور الذكوري إنّما لكون طبيعة الموضوع تستدعي ذلك ف: (لا يتقدّم الرجل والمرأة من خلال منظور أحادي، ولكن يتمّ تشخيصهما انطلاقاً من تجليات واقع هذا المفهوم على المرأة)⁵² ، فلرصد وجود الرجل يتوجب بالضرورة الحديث عن شطره المقابل له ألا وهو المرأة .

نجحت رجاء عالم في رصد تجليات الحضور الذكوري، كما أرادت القول بأنّ الذكر هو الآخر خاضع لقوى المجتمع ولعاداته وتقاليده، وأنه مُسيّر لا مخير، وأنّ المجتمع بقوانينه وأعرافه هو من يفرض على كافّة أفراده من ذكور وأنثى القيام ببعض الأمور وهو مكره، إلا أنّ ما يُعاب عليها هو لغتها المتكلفة لدرجة يبدو فيها التصنّع بصورة ظاهرة، و واضحة، والرصف الهائل من المعلومات.

وعليه نستنتج أنّ الروائية قد قامت في نصّها برصد عوالم الذكورة، والأنوثة جاعلة من الشخصية الخنثوية خاتم هي من تكشف غور هذين الجنسين، سابعة في عوالم كانت تُعدّ حكراً على جنس دون آخر، إلا أنّ الوضع الذي تعايشت معه شخصية خاتم جعلتها تلعب على

الحبلين كاشفة كل ما هو مخبوء ومسكوت عنه، إذا كانت الأنوثة صفة تُميّز ربّات الخدور، و الذكورة/ الفحولة صفة يتميّز بها سادة القصور، فإنّ رجاء عالم جعلت من هاتين الصفتين أبواب تُغيّرهما شخصيتها المحورية حسب المواقف والظروف، هادفة من وراء ذلك الكشف عن مدى الزّيف الذي يحكم العلاقات الاجتماعية، وعن كون المجتمع الواضع لهذه القوانين والتي عادةً ما تُنسب للذكور، وأنّه مهما حاولت الشخصيات الذكورية تغيير هذه القوانين التي عادةً ما تُنسب إليهم، فإنّ محاولاتهم تبوء بالفشل وتُقابل بالرفض.

هوامش :

- ¹ يُنظر في المعجم الوسيط : جمهورية مصر العربية ، الطبعة الرابعة ، 2004 ، ص : 313 – 332
- ² خالدة سعيد : في البدء كان المثنى ، دار الساقى ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص : 200.
- ³ ص : 258. يُنظر: المعجم الوسيط ،
- ⁴ يُنظر: سارة جامبل : النسوية وما بعد النسوية ، ترجمة : أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، الطبعة الأولى، 2002 ، ص : 404.
- ⁵ ديفيد غلوفر. كورا كابلان: الجنوسة الجندر، ترجمة: عدنان حسن ، دار الحوار ، سورية ، الطبعة الأولى، دون تاريخ ، ص : 42.
- ⁶ عبد الله الغدّامي : المرأة واللغة ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة 2006، ص : 22.
- ⁷ ماري إيجلتون: نظرية الأدب النسوي ، ترجمة : عدنان حسن - رنا بشور ، دار الحوار ، اللاذقية - سورية ، الطبعة الأولى ، 2016 ، ص : 144.
- ⁸ سارة جامبل: النسوية وما بعد النسوية ، ترجمة أحمد الشامي ، ص : 295.
- ⁹ نوال السعدوي – هبة رؤوف عزّت : المرأة والأخلاق والدين ، دار الفكر المعاصر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 2000 ، ص : 231.
- ¹⁰ مجموعة من الباحثين : عبد الفتّاح كيليطو متاهات الكتابة ، جامعة محمد الخامس -أكّدال ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية -الرباط ، دار توبقال للنشر -، الدار البيضاء - المغرب ، الطبعة الأولى ، 2013 ، ص : 48.
- ¹¹ رجاء عالم : خاتم، ص : 12.
- ¹² معجم الوسيط ، ص : 454.
- ¹³ رجاء عالم: خاتم ، ص : 07.
- ¹⁴ جورج طرابيشي: رمزية المرأة في الرواية العربية - ودراسات أخرى - ، دار الطليعة ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية، 1985، ص: 32.

- ¹⁵ رجاء عالم: خاتم، ص: 57.
- ¹⁶ يُنظر: المصدر نفسه، ص: 100.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص: 224.
- ¹⁸ شفيق الأرنؤوط: قاموس الأسماء العربية - دراسة شاملة للأسماء العربية، ومعانها ودليل للأبوين في تسمية الأبناء، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1979، ص: 94.
- ¹⁹ رجاء عالم: خاتم، ص: 225.
- ²⁰ المصدر نفسه: ص: 206.
- ²¹ المصدر نفسه: ص: 208.
- ²² المصدر نفسه: ص: 67.
- ²³ المصدر نفسه: ص: 59.
- ²⁴ المصدر نفسه: ص: 26.
- ²⁵ معجم الوسيط: مرجع سابق، ص: 218.
- ²⁶ رجاء عالم: خاتم، ص: 42.
- ²⁷ عيسى برهومة: حفريات في اللغة والجنس - حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة -، دار الشروق، الأردن، الطبعة الأولى، 2002، ص: 33.
- ²⁸ روجيه غارودي: مستقبل المرأة، ترجمة: محمود هاشم الوديني، دار الحوار، سورية، الطبعة الأولى، 7 / 2012، ص: 35.
- ²⁹ رجاء عالم: خاتم، ص: 141.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص: 86.
- * الخنثوية: Androgyny: كلمة يونانية الأصل، مُشتقة من لفظي andro أي ذكر، و gyn أي أنثى، وتعني اجتماع خصائص الذكر والأنثى في شخص واحد.
- ³¹ سارة جاميل: النسوية وما بعد النسوية، ترجمة: أحمد الشامي، ص: 268.
- ³² رجاء عالم: خاتم، ص: 43 - 44.
- ³³ المصدر نفسه، ص: 119-120.
- ³⁴ المصدر نفسه، ص: 49.
- * البطريركية: هي بنية الحضارة الإنسانية على اختلاف مراحل وتطوراتها وشعابها القائمة على مؤسسات وعلاقات اجتماعية، تكون المرأة فيها ذات وضعية أدنى خاضعة لمصلحة الرجل، ويتبوأ الرجال السيادة، والمنزلة الأعلى، حتى يمتلكوا سلطة تشكيل حيوات النساء أنفسهن، مما يُخضعهن لأشكال من القهر والكبت تفرض على المرأة حدوداً وقيوداً، وتمنع عنها إمكانات النماء والعطاء، فقط لأنّها امرأة، حتى بدت الحياة كأنّها حق للرجل وواجب على المرأة. مقال: معنى طريف الخولي: النسوية وفلسفة العلم، ضمن مجلّة عالم الفكر، ع 2، م: 34، ديسمبر 2005، الكويت، ص: 12.

- ³⁵ رجاء عالم: خاتم ، ص : 17 .
- ³⁶ المصدر نفسه. ص : 234 .
- ³⁷ المصدر نفسه ، ص : 58 .
- * الشقدوف : مركب أكبر من اليهودج ، يستعمله العرب ، وكان يركبه الحجاج إلى بيت الله الحرام.
- ** الأخفاف : ج / مفرده خفّ ، والخفّ للبعير كالحافر للفرس.
- ³⁸ رجاء عالم : خاتم ، ص : 60 .
- ³⁹ المصدر نفسه، ص : 254 .
- ⁴⁰ المصدر نفسه. ص : 177 .
- ⁴¹ حسين المناصرة : قراءات في المنظور السردى النسوي ، عالم الكتب الحديث ، إربد – الأردن، الطبعة الأولى، 2016 ، ص : 17.
- نوال السعدواي – هبة رؤوف عزّت : المرأة والأخلاق والدين، ص : 40. ⁴²
- ⁴³ زينب العسّال: النقد النسائي - للأدب القصصي في مصر - ، الهيئة المصرية العامة للكتاب- مصر ، دون طبعة، 2008، ص : 53 .
- ⁴⁴ صابر الحباشة: غواية السرد - قراءات في الرواية العربية - ، دار نينوي ، سورية ، دون طبعة ، 2010 ، ص : 112 .
- ⁴⁵ بام مورييس : الأدب والنسوية ، ترجمة : سهام عبد السلام ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، الطبعة الأولى ، 2002 ، ص : 156 .
- ⁴⁶ رجاء عالم : خاتم، ص : 56 – 57 .
- ⁴⁷ المصدر نفسه. ص : 73 .
- ⁴⁸ المصدر نفسه، ص : 196 .
- ⁴⁹ عبد الله إبراهيم : السرد النسوي – الثقافة الأبوية ، الهوية الانثوية ، والجسد - ، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع – لبنان ، دار فارس – الأردن ، الطبعة الأولى ، 2011 ، ص : 16 .
- ⁵⁰ رجاء عالم : خاتم، ص : 206 .
- ⁵¹ المصدر نفسه. ص : 174 .
- ⁵² زهور كزّام : السرد النسائي - مقارنة في المفهوم والخطاب - ، دار المدارس ، الدار البيضاء – المغرب ، الطبعة الأولى ، 2004 ، ص : 166 .

